سنتدو

أو

راية الغرام

بقلم

عبد الحليم أحمد فرج

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء الرواية

لقد لعب معك الهوى طوره ياسيدى فلم لاتقدم على وتبثنى شكواك ، فستجد منى لين جانب وشفقة على قلبك المكلوم ، وسأضمك الى صفحة من صفحات الهوى وأهديها اليك ، لتتهادى فى رياضها وتستنشق من هوائها الذى يشفى فؤادك المجروح ؟

عبد الجواد احمد فرج

المؤلف

obeikandi.com

obeikandl.com

المقدمة للاستاذ محمود عبد الله

الحب

سخر الناس قديماً وحديثاً بمن أحبوا وما أحبوا وحسبوا أنه طيش ونزق يتنافى مع العمران ولو أنصفوا واعتدلوا فى طبيعة تفكيرهم لزال كل ما حسبوه وحل محله اليقين بأن الحب ملاك رحيم يرفرف على الكون فيبصره العاشق فى الظلام الدامس فيبعد عنه النوم ما استطاع والزاهد فى صومعته فيلمح فى طريق الوصول والراعى فى مشيته فيغنى وقد وضع عصاه على كتفه والفيلسوف فى صمته فيتهجد ويطيل فى تنهداته فاذا حاول واحد من هؤلاء أن يدنو من هذا الملاك ضل قفر فهوى وود لو عاد إلى ما كان عليه ينعم بترديد الأناشيد الخلوة الساحرة .

محمود عبد الله

— ٦ —

سندوب

سندوب . . . . . سندوب . . . . . سندوب

على رابية مرتفعة قامت هذه القرية وهى احدى ضواحى مدينة المنصورة . تحاط بأشجار عالية ذات أفنان مترامية ويحدها من جهة الشرق نهر عذب سلسبيل قامت على ضفافه الناعورات تنزف المياه من قاعه وتروى الأراضى وزرعت على ضفتيه الأشجار الضخمة فاذا جاء الربيع وازدهرت الأشجار وانتشر شذاها وحلق بالسماء فكأنك ياسندوب مصباح والريا ضوءك فكم من مهجة تسر لرؤياك وكم من فؤاد يفهم غبطة لحسن منظرك . إذا بزغت الشمس وأرسلت أشعتها مصلصلة نانخة مؤذنة للميل بالمغيب فأنت ترى على بعد نصف ميل من سندوب أنها جنة مرتفعة لا رابية خصبة . هكذا حال سندوب صباحا أما إذا حلقت الشمس فى كبد السماء رأيت منظرا جميلا يعجز البنان فى التعبير عنه ويكل اليراع فى وصفه ويقف اللسان حائرا فى أمره فتجد أن أزهار الأشجار التى تحيط بالنهر مختلفة الألوان يقع ظلها على الماء الجارى فيجعل لونه عسجديا فى جهة وبنفسجيا فى أخرى ويزيد لون مائه جمالا أن

السماء الصافية الأديم تظلله بقبتها الزرقاء فاذا سرت بجوار النهر فانك لاتشكو ألما ولا تمل سيرا وإذامالت الشمس وحل الأصيل وجدت أشعة الشمس آخذة فى الانحلال والتحول فتصير صفراء فاقعة حيث تختلج وجنتيها حمرة تسر الرائى وتشرح الصدر أما إبان مغيب قرن الغزالة حين تزجر الأرض زجرتها الشمسية آمرة الشمس بالرحيل فتجد نسيما عليلا وشكلا بديعا يندفع من أجله الانسان إلى السير بين تلك الأشجار وإلى عمور ذلك النهر الميمون الروحات فما أحلى نهارك ياسندوب . ابتدأ الظلام فى إرخاء السدول وحلت هيبته وحلوكته ولكن لله رحمة على عبيده فشقت السماء صخرة من فضة لؤلؤة وضاحة أبت إلا أن تنير وهادك وتجادك ياسندوب ، تهلل فى السماء فتهللت له الوجوه فرحا وبشرا فى الأرض ، أرسل الجوهر ضوءه الفضى ، ما اسمك ياأمل الهائم ومرشد الحيران وقائد السارى وهاتك أستار المجرمين ومسعد الصحراويين والمبشر بخير يعم البلاد وأمن يحلق فى سمائها . . . . آه اسمك القمر ياله من اسم جميل .

إذا أرسل القمر نوره الفضى جعل جهات سندوب سمرا با

زئبقيا . يظل القمر سابحا فى ملكوت السماء والكون هادىء تراقبه عين قوية لايدرك كنهها أحد ، تعبد ولا ترى ألا وهو الله جل جلاله ، تمكث الدنيا فى سندوب هكذا حتى الفحمة فالزلفة إلى أن ينسحب القمر حين تأمره الشمس بذلك ويصبح الصباح فما أحلى ليلك يا سندوب . وسط هذه المناظر الطبيعية الخصبة ينبعث الحب الطاهر الخصب الخالى من التكلف والرياء وروايتى هذه حدثت بين أحضانها .

سعد ومريم

سعد فتى ريفى ممتلىء الجسم معتدل التركيب ناصع البياض يخالط وجنتيه حمرة وكأن فمه العقيق وشعره طويل مسترسل وعيونه جميلة جذابة . يلبس مطرا (لبدة) طويلا أدكن يزيده بهاء وأمه (هاجر) قد ناهزت الثمانين من من عمرها لا تكاد تجلس فى مكان حتى تتراخى جميع أعضائها بجوارها وأخوه « ابراهيم » لم يتجاوز العاشرة من عمره وأبوه « قاسم » وهو رجل قد لعب دورا فى الحياة حتى وخط الشيب رأسه لايمتلك سوى دار عتيقة وعدة غنيمات وبقرة ويعيش هو وعائلته على محصول تلك العدة أفدنة التى استأجرها

على ضفة الغدير بجوار أملاك «العم سرحان» العربى الأصل والد «مريم» تلك الفادة ذات القد الممشوق والجسم اللدن واللون القمحى والشعر الأسود الذى يحيط بوجهها كهالة من الفحم ، لم تتلخ الربيع الثامن عشر بعدوامها «دنيا» وهى امرأة متوسطة العمر وأخوها «شهلان» الذى لم يبلغ التاسعة .

سعد والمناجاة

مرت أيام على سندوب وهى بحال طبيعية ، وفى ذات أصيل يوم رطب إذا وقفت خارجها رأيت على بعد عربتين قد أقلقت عجلاتهما ثرى الأرض ، وهبت رياح العصر وحملت هذه الأتربة وطوحت بها فى الفضاء فيصعب عليك أن تراها بوضوح وما هى إلا عدة دقائق حتى وقفت أمام دار قد هجرها أهلها إلى المنصورة فاجتمع أهالى سندوب بجوار منزل عمى خليل المجاور لذلك المنزل ليروا من أمر هاتين العربتين اللتين أتتا محملتين أثاثاً ثم أخذوا يساعدون قاسم الرجل الكهل وابنه سعد . ولما كانت مريم من المتفرجين ورأت شيخوخة قاسم أبت مروءتها إلا المساعدة ، فكانت تحمل أحمالا ثقيلة وتدخل بها فى المنزل ومرة ثقل عليها

الحمل وهى فى الدهليز وزلت قدماها وكادت تهوى إلى الأرض إذ بها تشعر بمن رفع عنها الحمل بقبضتين من فولاذ ، فبهتت لهذا العمل الغير منتظر ، ولما نظرت اترى منقذها وجدته سعد . فقالت : شكرا لك ياسيدى . فقال لها : عفوا ياسيدتى بل شكرا لك أنت . من هذه النظرة علق قلب سعد بمريم فتصادق مع بعض الشبان بجوار منزلها وجعل سيره دائما من أمام دارها ، علّه يأنس برؤيتها وكان كلما مر هناك رفع صوته بالضحكات العالية ، وبالأغانى . وبعد أن كان يسير حافى القدمين ، عارى الرأس ، رث الثياب ، أصبح الآن يلبس مطرا وجلبابا أبيضا قد خطه زرقة لون ماء التنظيف ، وكان كلما ذهب إلى المنصورة أتى بعطر وتعطر وعطر منديلا وضعه حول رقبته ، وكانت مريم تمر أمامه ولا تعيره أدنى اهتمام . فكان هو يتألم لذلك جد الألم وتغيرت طباعه مع عشيرته ومواعيده أيضا . وصار لا يأكل أى طعام يقدم له إلا على سبيل المصانعة والتكلف خوفا من اللوم ، وكان يشمئز من أهل داره ولا يطيق لهم حديثا

وذات مساء أحيطت سندوب بسوار قاتم وحل الظلام ، ولم

يزل كذلك غير قليل حتى انقشع وبدده القمر الذى طل من سحابه فخرج سعد من داره بعد أن أخبر والده بذهابه لمساعدة بعض رفاقه فى الحقل ومر حسب عادته من أمام دار مريم ووجد الباب مفتوحا ثم بعد لحظة رأى مريم آتية تتبختر فعول على أن يحييها ولما مرت من أمامه تردد ولم يجد الشجاعة التى تؤهله إلى الكلام معها ، فصار كالمعتوه ومشى يبكى ويندم على عدم مكالمته لها طورا وآخر يعقد النية على مقابلتها فما أشبهه بمجنون ليلى ولكنه متيم مريم . ذهب فى طريقه وأخذ يناجى حبيبته فقال : الرحمة يارب فانى لم أرتكب جرما حتى ترمينى الأقدار بمعاملتها السيئة ، إن قلبى لا قبل له باحتمال مزاح الأيام السخيف ثم نظر إلى القمر وقال وأنت أيها القمر أتظل هكذا تبتسم سخرية منا وهزؤا بنا ؟ أم ترانا نرتشف كؤوس الهيام ، فيخالجك الحياء فتتوارى خلف الغمام ؟ وأنت يامريم هيا تقدمى إلىّ ياحبيبتى وعند ذلك تصور شكل مريم وانطبع أمامه فى السماء وتجلت له عظمة جمالها الذى لاتنكره العين الجاحظة . فقال لها : لاتخافى ياحبيبتى ، فانا عبدك المطيع وبطلك الصنديد ، وخيل اليه أن شابا يقترب منها فصاح

ابتعد عنها أيها الوغد الذميم وإلا حطمت رأسك ، إلى م هذا الفراق ؟ واحسرتاه لا أطيق هذا العذاب ياربى ! فأنت أعلم بى . ولكن لم لا أتقدم اليها وأحييها برباطة جأش وثبات جنان . وحينئذ عاد أدراجه إلى القرية ووقف أمام بيت مريم . وقال : ياديار العذارى رفقا بالشباب ولا تجحدوا هكذا ، فتواروا بين جدرانكم هؤلاء الفادات اللاتى هن أمل الحياة ومطلب المتيمين . ولكن لم أنا أناجى الديار عامة ، يجب على أن أناجى دارك يامريم ولم قال يامريم كانت هى قرب الباب فسمعته ونظرت اليه فوقف كالتمثال لا يعرف أيقدم عليها ويحييها أم يحجم وظل يشاور نفسه إلى أن اختفت عن نظره فبكى وعاد فى طريقه الى داره وكان يتلمس آثار قدميها فى الثرى الرطب ويمشى بحذائه ولولا يتهم بالجنون لقبله حتى ضل الطريق الموصل الى المنزل ولم ينظر الى وقد وجد نفسه فى طريق آخر فخيل اليه أن أناس البلدة يسخرون منه فهرول ثانية نحو داره وهو ينظر خلفه وأمامه كمن ارتكب جريمة وصار يقول ان لكل شىء آخر ولست أدرى ماذا تكون خاتمتنا يامريم ثم دخل داره بعد أن مشى فى الطريق القويم فقدمت

اليه أمه الطعام فلم يتناوله ، وقال انه لا يستسيغه . ثم نهرها وذهب الى مرقده ولكن كيف يجد راحته فى الرقاد وهو على كل حال أخف وطأة منها المحموم اشتدت وعدته • ظل هكذا ساهدا ولما جاء الفجر اقترب النوم من جفونه • فراح فى أحلامه مع مريم فطورا يرى نفسه يضمها الى صدره وآخر يحس أنه يتردد فى التقدم أو الاحجام الى أن أصبح الصباح • قضى عدة أيام وهو ساهد الضمير منعكس المزاج الى أن سنحت له الفرصة بالمقابلة

قام قاسم من نومه على صوت المؤذن الله أكبر •• الله أكبر •• ثم جلس القرفصاء على المصطبة وجعل يفرك عينيه لأنه لم ينم نوماً هادئاً من البراغيث التى أقامت حفلة ساهرة فوق منكبيه • وقف قائلا : لقد حان الفجر ولم نقم ولدى سعد لادارة الناعورة ثم صاح قم ياسعد أد فريضة الفجر وابتهل الى الله عز وجل ثم شد الرحال بالخراف والبقرة حيث تدير الساقية • هب سعد من نومه قائلا سمعاً وطاعة ياوالدي ثم ذهب إلى الزاوية وصلى وعاد إلى داره ومنها إلى الحقل . فى ذلك الصباح البدرى حيث لم يكن قرن الغزالة قد ظهر أخذ يتهادى فى مشيته وهو كلما مر على جماعة من الفلاحين أقرأهم السلام

إلى أن وصل إلى ناعورته ووصل الهادية بمنطقة البقرة وركب عليها وترك الخراف ترعى فى الأرض وأخذ يرتل الألحان فى حين أن الخراف أخذت تغير على أرض عمه سرحان وما هى إلا خطوة ثم جاءت مريم تلين الأرض تحت قدميها وكانت الشمس قد أرسلت أشعة الصباح الباهته فاختلطت بلون سماء الفجر فجعلت منه منظرا يسحر العقول ثم تعانقت الطيور على غصون الصفصاف والجميز وأخذت تردد الأغانى والأناشيد وابتسمت الأزهار الحمراء والخضراء والزرقاء من أكمامها ونظر النرجس الغض وهو شاخص الحدق إلى من أعزتهما الطبيعة وكانت خضرة الحقول وسير الماء العذب بين ربوعها منظرا يستهوى العقول الراجحة ويلعب بالأفئدة الهادئة . ارحمى أيتها الطبيعية ولا تبهرى الأعين بمناظرك الخلابة واعلمى أن بين أحضانك أناسا إذا رأوا الجمال ضلوا ومنهم من إذا رآه تعبد فو حق من خلقك أنظرى بعين الرأفة إلى هؤلاء الذين تصدعت أفئدتهم وتفجعت عيونهم وفترت أفواههم وأشرأبت أعناقهم إلى الغرام ولا تجدى هكذا فى تعذيبك ولا تطيلى التكام بأحاديثك العذبة حتى لا يشتاق المحب إلى حبيبه وحتى يظل هادئا

أنا أقولها رغم أنفي لأنه والله من فرط ما اشتعلت به نفسي من ولوع وتعطش الى شرب كأس الغرام العذب كولوغ الكلب بعد شوط طويل فى قيظ الشمس إلى الماء فرحمة بالمحبين وشفقة على قلوبهم .

انحدرت العذراء متجهة بالبقرة نحو الساقية وعند ذلك رآها سعد فصار كالمخبول يرسل الأغانى وقلبه يدق دقات سريعة وكانت مريم فى مشيتها لا تلوى على شيء إلى أن سمعت صوتا حنونا يغرد وسط هذه المروج الخضراء فأمعنت فى النظرات فرأت سعد جالساً على الهادية وقد وضع يده اليمنى فوق خده وأخذ يرسل ألحان الصباح فكأن صوت هذا الشاب سهام انحدرت الى قلبها فتصدع ففتح أبوابه على مصراعيها فوقفت حائرة من جمال الطبيعة وعذوبة الصوت ولما وصلت إلى الناعورة قالت نعمت صباحا ياسعد فنزل سعد من على الهادية وحياها ولما نظرت هى إلى حقلها ووجدت أن خراف سعد قد أتلفت جانبا من الزرع قالت له هل من حقوق الجار نحو جاره أن يترك خرافه لتتلف حقله ؟ فأجابها عفوا يامولاتى وكأن كلمة مولاتى قد شدت أوتار قلب مريم وعرفت ما يدور بخلد سعد فابتسمت عن طيب خاطر ثم قالت كف أى سعد عن

مزاحك فقال لها إن لى فى المزاح مع مولاتى ما يخفف عنى آلاما مبرحة فضحكت وقالت إننى لست كفئا لقولك يامولاتى فقال لها وكيف لا وقد تملكت على شىء فى جسمى ولم يعد لى حق فيه مطلقا أتعرفين الجزء الذى استعمرتيه ؟ إنه القلب يامريم الذى تفجرت جوانبه ولا يؤاسيها إلا كلماتك التى تفيض عذوبة فما رأيك فى هذا القلب ؟ فابتسمت ثم قالت إننى أيضا أشعر بميل نحوك ولكن أولا خذ بقرتى هذه ونجاتك واتركها تحت هذه الصفصافه ثم أشارت بيدها نحو شجرة من صفصاف بجوارها أخرى من جميز ثم قالت أنظر إليها إنها جميلة حقا ولكن مالى إراها تميل نحو هذه الجميزه فأجابها ان ضميرى يخبرنى بأن هذه الصفصافه تحب هذه الجميزه كما أنى أحبك وأعبدك يامولاتى فقالت له هيا اذهب ياعزيزى واسرع فى العوده وسأدير لك الساقية حتى تحضر ثم أخذ يسير ومريم تشيعه ببصرها إلى أن بلغ الصفصافه حيث جمع تحتها المواشى فى حين أن مريم أخذت تحث البقرة على السير بالناعورة .

لما أخذ سعد يجمع الحيوانات أخذ يقول هيا ياخرافى هيا ياخراف الغرام إنكم وجدتكم لى طريقا سهلا بل إنكم مساغ بغيتى

فأجل بكم من عجماوات تعرف معنى الشفقة !!

ثم جمعها تحت الصفصافة وعاد أدراجه بخفة حتى وقف وراء مريم ولم تشعر بوجوده لأنها كانت تنشد أغانى الفلاحات أثناء جنى القطن وما أن ذكرت يا حبيبي تذكرت سعد فنظرت تجاه الصفصافة وقالت أينك يا حبيبي ولشدة إعجابها وجدت سعد واقفا أمامها فضحكت وأحمر وجهها وقالت هيا نجلس هنا يا سعد تحت ظلال الأشجار ثم جلسا صامتين لا ينبس أحدهما ببنت شفة إلى أن قطع صمتهما الطويل صوت آتى من تجاه الغدير قائلا «عاه» أين أنت ياسعد حتى تترك مياه الناعورة تتعدى الحدود وتقطع السدود فقام سعد وقال من المتكلم ؟ تفضل يا صاح ولشدة دهشته رأى شعلان واقفا أمامه قائلا ولم أنت جالسة هنا يا مريم ؟ هيا اذهبي إلى بقرتك واتركي هذه الأغبياء وإلا . . فقاطعه سعد قائلا وإلا ماذا ياغلام هل هناك مايريب أو يدخل الشك أنها كشتيقتى ولا غبار على جلوسنا بأنس كل منا بالآخر تحت هذه الأشجار في مكان ناءمثل هذا !! أترك عنك هذه الفكرة السيئة ياأخا العرب ولا تعد اليها ثانيا ولكن إلى أين تريد الذهاب ثم مد سعد يده ولكزه لكزة بلطف

صدره فضحك شعلان وقال ياأخي سعد انى أتيت لأصيد معكما فقال له سوف أحضر معك ولكن من يدير الساقية؟ فأجابه شعلان شقيقتي مريم ، ثم صاح تعالى يامريم وراقبي إدارة الناعورة حتى نحضر فأجابته بالموافقة فحياها سعد بنظرة فابتسامة . ثم سار شعلان وسعد يحمل له الشص حتى وصلا مكان الصيد ثم صادا وعاد إلى الساقية فوجدا مريم تبكي

تخوف مريم

هيا أتركك هذين الصيادين الماهرين وعد معي إلى مريم فقد جلست بعد ذهابهما تفكر في حبيبها سعد وميلها الشديد إليه ثم جدت في تفكيرها حتى وجدت أن العقبة الوحيدة التي أمامها هي شعلان وخوفها من أن يخبر والدها بعلاقتها مع سعد ، فأثار ذلك لوعة في فؤادها فأخذت تبكي ... وبينما هي سابحة في لجج الأفكار إذ بها تسمع وقع أقدام أمامها فنظرت فاذا بسعد وشعلان وكان شعلان حاملا عنقودا من السمك فأخذت مريم بكاءها ولكن كانت عيناها لاتزالان حمراوتين فقال لها شعلان ما يبكيك ياأختاه فقالت وقد فقدت شيئاً من رزانتها : مايبكيني سوى شوكة قد

باتت فى قدمى ولكننى أخرجتها بعد عناء . فضحك شعلان وقال وأين كنت حين دخلت هذه الشوكة فى قدمك ولكن لا تهمنا هذه الشوكه كثيرا . ثم نظر إلى سعد وقال : أنا ذاهب ياعزيزى لشى السمك ، وقال السلام عليكم فرد عليه سعد السلام ثم بعد أن توارى شعلان عن الأنظار جلس سعد بجوار مريم ، وقال بصوت متهدج : إن بكائك يا حبيبتى أقلق خاطرى فهل من داع لذلك ؟ قالت إنى أخاف أن يخبر شعلان والدى فيشنع بى . فقال برقة : وماذا يهمك ونحن نحب بعضنا حباً شريفا لاتشوبه شائبة وبينما هما على هذه الحالة إذ بغر قد ظهر .

إن السعادة دائما لا تهوى إلا من غفلت قلوبهم عنها ، وأما الأقدار السيئة وطائر النحس فدائما يلازمان المحبين ، وأولئك الأوغاد توسلهم المقادير لمعاكسة الطيور فى أوكارها وإقلاقها فى راحتها ، ولكن سعد منعما مع مريم فهل غفلت عنهما الأقدار ؟ كلا . . . بل فتشت فى جهتها فوجدتهما جالسين تحت شجرة الصفصاف ، فأرسلت اليهما « خالد » بن الصمده ، فقال : السلام عليكم ياسعد . فرد عليه سعد وهو جالس بجوار مريم ، ولكن لم

يستطع أن يخفي ما في نفسه ثم ظل الجمع صامتا ، وكأن الطير على رءوسهم فأرادت مريم أن تزيل من حروجة الموقف ولكن هي فتاة ، وليست أقوى من الرجل فلم تقدر على الكلام . وأخيرا بعد مقاومه نفسانيه عنيفة قال سعد : كيف حالك ياخالد وماهي أحوال القطن ؟ فقال خالد بحدة نحن الآن لا نتساءل عن ثمن بل نتغازل مع . . فقاطعه سعد قائلا : لا تقل نتغازل يا خالد . فاحمر وجه مريم خجلا ومالت بظهرها الى شجرة وراءها وكأنها في حلم رهيب ، وأخذ الشابان يتشاحنان وأخيرا نظر خالد إلى سعد نظره مملوءه بالغيظ الشديد التي تنبيء عن الأصرار على الأذى ، وتركه وسار في حين أن سعد ظل واقفاً كقطعه من الصخر الجلمود ثم نظر الى مريم ونظرت اليه وكان الحب والهيام قد أخذ منهما كل مأخذ ، فقال لها سعد : لا تخافي ولا تحزني فالله معنا . فقالت بصوت رنان استولى على مشاعر سعد . أنا لك ياسعد . وقال هو : وأنا مخلص إلى النهاية . وفي هذه اللحظه سمعا قهقهة خلفهما ومن قال أن هذه الشوكة لغريبة التطور كيف أني تركتها هادئه ولما عدت وجدتها . . ها . . وكان القادم هو شعلان فأتى يحمل السمك

والخبز ثم تقدم من أخته وقال : مابال قدمك يا عزيزتى اتركيها وخذى هذه البياضة وانتقمى منها لأنها سبب كل ما حل بك .. فضحك الجميع باستياء ، وضحك شعلان ضحكة عالية . ثم ابتدأوا فى الأكل فانهار شعلان يمزق الخبز تمزيقاً بشراهة وكأن الأسماك تستغيث تحت أضراسه . وبعد أن تناولوا الطعام قال شعلان إننى ظمآن : فقالت أخته دونك الماء فى الترعة فاشرب حتى تروى . فمشى الولد الى أن بلغ الترعة ثم جلس على الحافة ومال بيديه نحو الماء ، وكان على الضفة المواجهة شبان وصغار يمرحون فنظروه وهو يميل نحو الماء ثم صرخ فجأة وهوى فى القاع .

الجنيّـــة

صاح الأطفال الجنيّة .... الجنيّة .... لقد اختطفت الجنية شعلان ، وما اختطفت الجنية شعلان وما كان هناك جنية ولكن زلت قدم الولد فهوى فى النهر . علا الصراخ والعويل وتعالت الأصوات النجدة ... النجدة ... فهرع الناس من كل صوب الى مكان الحادث .

لنترك هذه الأصوات المترافعة وهذه الأجسام المحتشـدة

ونعد لنرى من أمر سعد ومريم فقد جلسا بعد الأكل ينظر كل منهما للآخرين حين سمعا الصراخ والعويل وأصوات الاستغاثة فقفز سعد واندفع نحو مصدر الصوت اندفاع الأسد نحو الفريسة فوجد الناس يتحدثون عن غرق شعلان فخلع ملابسه وغاص فى الماء فى حين أن مريم كانت واقفة على الشاطىء خائفة وجلة لا يهدأ لها ضمير ، وكأنها تتقلب على جمر الغضى وشوك القتاد ، فى لمح البصر كان سعد قد انتشل الولد من بين براثن الموت ، وطفا على سطح الماء ، فوجد عمه سرحان واقفا يذرف الدموع السخين ، وكذلك كانت حال دنيا أم شعلان على فراق وحيدهما وما أن رأوا سعد يحمله على يدين ملأتهما الشفقة والرحمة حتى زغردت أم شعلان وهلل وكبر أبوه ونظر الجمع إلى سعد نظرة اعجاب وابتسمت مريم تعجبا بشجاعة سعد ذلك الشاب الذى لا يهاب المنية . خرج الشاب من الماء يحمل الغريق ثم أرقده على الخضرة على ظهره وهو فى حالة أغماء شديد أجرى له عملية التنفس الصناعى (ولم يكن متعلما حتى يعرفها ولكن رأى طبيبا يعملها لغريقه فى إحدى رحلاته إلى المنصورة)وأما أن ثاب الولد

حتى صاح . . صديقى سعد . أين أنا ؟ فأجابه سعد أنت بين يدى أمك ياعزيزى وقالت أمه برفق لا تخف ياشعلان فأنت بخير لقد انتشلك ذلك المغوار من هوة لا قاع لها . . هوة الموت الغبراء ثم التفتت وقالت بلهفة شكرا لك يابن قاسم ثم قام الجميع يشكرون سعد على شجاعته . ولقد أثر هذا العمل الجليل فى قلب مريم وزادت ولوعا به فتركت القوم يسيرون وقت الغروب وحان الليل وأرخى سدوله فذهبت لتأتى بالبقرة وكذلك ذهب سعد ليجمع خرافه وحل البقرة من الناعوة وعاد مع مريم إلى الدار حيث كان الجمع قد سبقهما اليها وظلا سائرين فى وقت الغروب ومريم تبث سعد الغرام وسعد يمنيها بالمستقبل الزاخر بالسعادة وهى تتلذذ من سماع حديث من تعتقد أنه مقر سعادتها .

ألاعيب خالد

ذهب خالد بعد أن ترك سعد ومريم بين أحضان الحقل ونار الحقد تتأجج فى صدره كما تتأجج ألسنة اللهب حول المرجل ثم ذهب توا إلى منزل العم سرحان وأخبره بأمر سعد ومريم فكاد الرجل أن يصدقه وداخله الشك وكانت ألفاظ خالد قوية فقال ماجزاء من أراد بأهلك سوء ؟ فعجب الرجل وقال ماذا تعنى ياخالد ؟ فأخبره بأنه وجد

مريم تتمرغ بين أحضان سعد . ووالله ما كان هذا وأن سعد لبرىء مما يتهمه به خالد براءة الذئب من دم ابن يعقوب ولم يحرك الهم سرحان ساكنا بل ظل على هدوئه إلى أن أتاه خبر غرق ابنه فقام من فوره ووجد أن سعد قد انتشله من هلاك مؤكد فلم يجد بدا من شكره ودعاه فى داره فذهب سعد وأحضر مواشيه وها هو ذا تراه قادما مع مريم يتمتعان بلذة الحديث ويخففان لوعة الحب المحرقة .

وصلا سندوب ولا يجب أن أصف لك جمال الغروب لأنه سبق وصفه فى المقدمة فقد كنت يا سندوب رابية غناء . ذهب سعد الى داره وربط مواشيه وعاد الى دار مريم وقد تسلح بالظلام وما أن وصلها حتى استقبله ربها وربتها بالتبجيل والاحترام ثم دخل حجره تضاء بنور ضئيل منبعث من مصباح موقد بالزيت وعلى الرغم من ذلك وجدها وضاحة منيره لأن مريم بها وما أنت يامريم إلا مصباح القلوب . جالس سعد أرباب المنزل فى حين أن الغلام شعلان أخذ يقول أشكرك يا سعد . . أشكر ياصديق الصيد كم كنت رحيما ، أود أن تكون بجوارى لنلعب معا . وبعد

ساعه تبختر طائر الكرى نحو أهداب شملان وأسدلهما برفق فراح الولد فى ثبات عميق وعند ذلك ابتدأ الأب يتكلم فقال لقد برهنت ياولدى سعد على نبالة أصل وكرم أخلاق فأنا أن صار مديحى لؤلؤا لا يمكننى أن أوفيت حقك فشكرا لك ولكن يسيئنى أو يحزننى أن أسمع عنك مايجعلنى أرتاب فى أمرك ولكن قبل أن أتكلم كن على يقين أننى لست بمتأكد مما سأقول وهو أنى سمعت من بعض أفراد أنه توجد علاقة سيئة بينك وبين مريم ابنتى وفى هذه اللحظة تورد وجه مريم وقال سعد فى تردد وخبل علاقة سيئة ؟ ! . أظن كلا ورب البيت هذا لم يحصل ولن يحصل مطلقا ولكن نعم أخبرك بأن ذلك الوغد خالد أتى اليك ولعب بعقلك ياسيدى وأنت شيخ فى كهولة سنك . لقد افترى وبغى وعلى الباغى تدور الدوائر ، ثم أكفر وجهه فقال العم سرحان خفف عنك يا بنى فاننى لم أصدقه قط وعند ذلك قال سعد لقد أخبرك بذلك عند ما رآنى واقفا مع مريم عند الناعورة أستدل منه على مكان غرق الغلام فأتيت لأخلص أخاها وإنا لواقفان إذ بنا نرى خالد يعدو نحونا ويضحك ثم أتى هنا ليوقع الضغائن بيننا . أينظر

لثروته وجاهه وكونه بن عمده ؟ . كلا . . كلا . . لابد أن أنتقم منه ولو كان فى أعماق المحيط أو فى قرص الشمس ثم قام وقد بدا الغضب على جبينه وأخذ منه الأسى كل مأخذ فقامت أم مريم ثم قالت أجلس يابنى فانها لك وأنت لها ولقد أخبرت عمك سرحان بأن هذا محض افتراء وأن لم تظهر الحقيقة اليوم فستظهر فى الغد والآن لا غبار عليك فأنت طاهر الذيل شريف النسب . كانت مريم فى هذه اللحظة تفكر فى ألعوبة تزيل بها هذه الفكرة .

سنـــة مضت

منذ سنة مضت كان خالد يحاول اقناع مريم ويعلمها بحبه لها وأنه سوف يتزوجها وأنها ستكون فى قصره وهذه الضياع والقصور الفخمة والخدم والعبيد طوع إشارتها وأنه سوف يقوم بكل ما يدخل عليها السرور ويدفع الدين الذى على أملاك والدها و . . و . . الخ . ولكن كل هذا لم يجد فتيلا حيث أن مريم قد وهبت قلبها سعد منذ أن رأته عند حضوره الى بلدتهم ولكن لم تشأ الأقدار أن تكلله إلا فى ذلك الصباح بل ان شئت أن تقول أن خراف الغرام هى سبب المقابلة ولذلك أسماها سعد « خراف

السعادة » لم تقبل مريم تمنيات ذلك اللعين وضربت بها عرض الحائط . تذكرت مريم هذه الفكرة فلم تشأ صبرا ولم تعمل بنصيحة من قال :

واصبر على كيد الحسود فان صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

بكت الفتاة فتألم سعد لبكائها وقال لم تبكين يامريم؟ فتلعثمت ثم قالت إن فى نفسى شيئاً أريد أن أقوله لكم وهى حقيقه ، بل حقيقة مرة ثم التفتت إلى أبيها وقالت

منذ سنة أخبرنى خالد بأنه يريد أن يتزوجنى وقابانى ذات مساء وحاول أن يقبلنى فبصقت فى وجهه ولعنته فصمم على الانتقام وهذا هو انتقامه ، أراد أن يوقع شاباطاهرا موقع النذلاء أمثاله والآن لقد انقشعت الغيوم وتجلت الحقيقة فلا تصدقه ياوالدى مهما صنع وأتى ببراهين . سمع أهل الدار قول العذراء وصدقوها واستسمح العم سرحان سعد عله يغفر له سوء ظنه به فما كان من سعد إلا أن عافاه وباركه فى يده وكان الليل قد انتصف وأخذ نور القمر يتضاءل فخرج سعد من الدار وقد مدّ الظلام على الارض

رواقا يقصر فيه قاب العين

يدب له الضراء ويمشى له الخمر (١)

لما لم يحرك العم سرحان ساكنا فى قضية خالد ولم يعرها أدنى تفكير صار خالد يتحبب إلى سعد كى يوقعه فى الهوة ولكن كان سعد أقوى من أن يقع فى هوة شاب ساذج مثل خالد فكان ينفر منه ولا يود أن يسير معه وفى مساء حضور سعد فى بيت مريم علم خالد به فحمل بندقيته وكمن فى الجرن مع رئيس الخفر وقد نفحه خالد بقطعة حمراء توهج لونها تحت أشعة القمر الضئيلة فلم يرفض الرئيس طلب خالد بن العمدة وأخبره بأنه سيترك حراسة الجهة الشرقية هذا المساء حتى يرتكت خالد جنايته الشنيعه

لقد ابتلع الظلام سعد وهو سائر ولم يكن بينه وبين دار العم سرحان سوى عدة قصبات حينما سمع طلقا ناريا قد ذهب بسكون الليل وكان على أثره صرخة عالية فخرج الفلاحون من ديارهم يحملون المشاعل ويبحثون عن القاتل والقتيل وكان من بينهم مريم وعم سرحان وبعد لحظة رأوا شبحا يحاول أن يتوارى فى الحقول

---

(١) يدس الدسائس وينصب المكايد ثم يتظاهر بالصداقه

فأسرعوا اليه وألقوا القبض عليه وما كان هذا الشيخ سوى خالد ثم بحثوا عن القتيل فوجدوا سعد قد انتعش انتعاشة ولم يصب بأذن ولكن شدة وقع الحادث أذهلته فأغمى عليه لأن طلقة البندقية كانت قاب قوسين أو أدنى من رأسه .

أحضرت مريم الماء المعطر لسعد وتولت العناية به مع بعض الريفيات فقام من غفلته يقول مريم . . . مريم .

ولما وجد الجمع حوله أمسك عن الكلام ثم أسندته مريم وجلس القرفصاء فى حين أن الرجال كانوا قد ألقوا القبض على خالد الذى حاول الهرب فلم يجد اليه سبيلا .

قام سعد وشكر من واسوه وذهب إلى داره ؛ وكان القانون يقضى على العمدة أن يقبض على القاتل أو من حاول القتل ويزجه فى غياهب الحجرات المظلمة حتى يذهبوا به إلى المنصورة فى أقرب فرصة ممكنة ويحاكم أمام القضاء وفعلا قبض على ولده وفلذه كبده وأرسل الخبر إلى المنصورة . وأدخل معه رئيس الخفر حتى لايمل الجلسة وحده فى ذلك السراب المخيف جلس الرئيس مع خالد يفكران فى رواية يقومان بتمثيلها غدا أمام رجال العدالة

ففكرا فيما يأتى :

خالد : خذ يا عم حسانين فتقدم منه حسانين وقال له ماذا تريد ياسيدى ؟ فأجابه خالد قائلا نريد أن نجرب فكرنا الثاقب فى تدبير حيلة للخلاص ثم جلسا بجوار بعضهما وقال خالد قص على قصتك يا أخا العرب ، فظل حسانين مده ربع ساعة صامتا ، ثم ضحك وقهقه وتراجع إلى الوراء ولهز خالد فى رقبته وقال :لقد نجوت يا ابن العمدة . فقال خالد بلهف : وكيف ذلك ؟ فأخبره بأنه لا يقول له إلا إذا أعطاه بضعه دراهم . فأخرج خالد من جيبه حافظه قد تلألأت النقود داخلها ، وأغرى الرجل بقطعتين ثم أخذ الخمير يقص لعبته فقال : إذا كان الصباح وأخذت إلى محكمه المنصوره فما عليك إلا أن تقول إنك كنت تشرف على الخفراء وبينما أنت قابلت عمك حسانين أعنى أنا ثم وقع باسمه على وريقه النوبتجيه وعند ما كنت تتحدث معه رأيت ذئبا فقلت له أذهب أنت إلى الجهه الغربيه حتى تقتنص هذا الذئب فتركك وصوبت فوهة بندقيتك نحو الذئب ولكنك ندمت لأن نظرك قد اخطأ لأنك ألقيته سعد وحمدت الله على نجاته وعند ذلك ضحك خالد

ضحكة لا تخلو من الأمل وصفع حسانين على ظهره قائلا : أحسن بك من خفير محنك !!

أمام المحكمة

شدت الرحال إلى المنصورة فكنت لا ترى الا جميرا قد توسطتها بغلة أمام دار المحكمة . قدمت الأوراق أمام العدالة وقد كان القاضى صديقا للعمدة فنادى المتهم والمجنى عليه وأخذ كل منهما على حدة ثم سأل القاضى خالد كيف كانت الحادثة فأخبره بابتكار حسانين فنادى القاضى شيخ الخفراء ثم قال له سائلا :

س ـ هل رأيت ذئباً حينما كنت واقفا مع خالد ؟

ج ـ نعم رأيته

وعند ذلك أمر القاضى باخراج الخفير ثم سأل خالد

س ـ كيف تعلل وجود القتيل ملقى على الأرض وأنت تحاول الفرار بجواره ؟ فتلعثم خالد أولا ولكنه أجاب برباطة جأش .

ج ـ أننى لم أره إنسانا ولكنه خيل إلى أنه أحد بنات آوى التى كانت تعوى فى هذه الجهة

عند ذلك دخل سعادة العمدة وكان محترما من الناس فى

القاضي ثم جلس حين نطق القاضي بالحكم .

« حكمت محكمة المنصورة الجنائية على المتهم خالد .. بغرامة قدرها عشرون جنيها والدفع فى الحال »

فرح العمدة ودفع العشرين جنيها ثم عاد أدراجه الى سندوب بعد ذلك أصبحت هذه الواقعه تلوكها الاسنان وأصبحت الاسماء مريم .... سعد .... خالد بين القيل والقال

خطبة الزواج

أصبحت الحادثة الماضية فى خبر كان ومضت عليها مده ثم أتى سعادة العمدة لخطوبة مريم ولم يسع العم سرحان الا الموافقه وقد أعطاه العمدة عشرة جنيهات كعربون للخطوبة وقرآ الفاتحة رغم أنف الفتاة

انكسر العم سرحان فى إيجار الاطيان ولم يجد مايدفعه ولكن جاء خالد وأخبره بأنه مستعد لدفع كل مايطلبه منه من الأموال لو هو وافق بل أسرع فى عقد قرانه على مريم فتهلل الرجل وحسب أن الأمر أيسر مايكون ومادرى أن حزن ابنته عميق حين تشعر بكل هذا أو بعضه وابيضت عينا مريم من الحزن

وأصبح الدائنون يحضرون كل يوم الى بيت العم سرحان ويخبرونه بأن آخر العام قد قرب وحان يوم الاستلام النقود ، ووافق أن ساعة حضور خالد فى دار العم سرحان وجود الدائنون ثم أخبروه بأنه بعد أسبوع سوف يحضرون لأخذ الأموال .

الجهادية

جاءت القائمة من مركز الحكومة المصرية تأمر بأعداد الشبان الذين بلغوا السن القانونية وانك لو مسكت الورقة وأمعنت فيها لوجدت أن سعد من بين هذه الأسماء

ألقيت الأوامر على الشباب فاستعدوا وجاء المساء وتقابل سعد مع مريم تحت شجرة الصفصاف وأخبرها بأنه ذاهب الى المنصورة فى صبيحة الغد واذا وقع الاختيار عليه فانه سيسافر الى القاهرة فأسرفت فى البكاء وضمها سعد الى صدره برفق وأخبرها بأنه سوف لا يقبل لأنه ضعيف فضحكت بفتور وقالت إن أمثالك ياعزيزى تقع عليهم العين لأول نظرة

أرخى الليل سدوله وأصطحب سعد مريم وعاد أدراجهما بعد أن صممت على أن لا تتزوج من خالد مهما بلغ الاصرار

أصبح الصباح وذهب الجمع الى مركز الجهادية بالمنصورة حيث قر الرأى على اختيار سعد وشاب آخر يدعى رضوان وكان رضوان هذا أعز صديق لدى سعد .

مضت الأيام سراعا وحضر الدائنون لاستلام الدين ولم يكن فى يدالعم سرحان شروى نقير فى هذه الساعة وجاء خالد واجتمع فما أحرجه من موقف .

جلس خالد على المصطبه وحوله الدائنون ومريم بجوار أبيها فقال خالد للعم سرحان لو أنت أقنعت مريم بأنها لى ثم عقدت قرانى عليها لدفعت لك كل ما تحتاج اليه من نقود فصاح الدائنون استغرابا وأخذا يتهامسون فيما بينهم فقال أحدهم لو كنت فى مركزه لقلت له (حل واشتال) ، فضحك الجميع ولكنهم صمتوا فجأة عند سماعهم صوت مريم تقول لخالد خسئت لا أريد الزواج منك مهما عملت ولا تحاول ذلك مطلقا واعلم أنك سوف لا تنجح عند ذلك علا الشاب الخجل ولاذ بجر أذيال الخيبه . أصبح العم سرحان بين نارين نار الموافقة من أجل الأطيان والدار ونار الرفض من أجل ابنته الوحيدة فنظر اليها ثم قال لم ذلك يا مريم؟ أقبلى يابنيتى

وهلا تريدين الزواج فيه ؟ كلا أخلعي عنك هذه الفكرة لأنه شاب مهذب غني كريم ، فبكت الفتاة وقالت إنني لا أقبله بعلا لي ياوالدي ولكنك تريد أن تبيعني له بيع الرقيق ، أنا ابنتك الوحيدة وتريد أن تقذف بي في هوة سحيقة في نظري .. كلا .. كلا ياأبت لا يمكن ذلك .. الرحمة يا من تركتم أمر أبنائكم ولم تنظروا اليهم بين العطف والحنان يامن تجرون وراء المال حرام عليكم أن تلقوا بأبنائكم في التهلكة وكل ذلك وراء الدنانير ، أين الرحمة التي يقولون أن الأب مبعثها وهو الذي يدفع الأحزان والمصائب عن عياله وهو الذي يبحث عن السعادة وعن مصدرها ويتعلق بأهدابها ثم يرسل بأبنائه بين ربوعها ، الواجب أن تنظر هؤلاء الآباء إلى الرحمة لأنها فقدت وأن يبحثوا عنها فلعل قلوبهم قد أسدلت عليها ستار الفناء وأن يمزقوا هذا الستار وأن يسدلوها على أبنائهم وأن .. وأن .. وأن مما أقيمت عليها أبنية النسيان وأصبحت في خيالي الأحلام .

اعلموا أن للحب تأثير على حياة الأفراد ما هو إلا قلادة قد تعلق بها عروسان وتبخترا في حلل من نوع واحد ورفرف في

سمائهما طائر كيوبد ذلك الطائر الذى قد يكون سببا فى فناء الحبيبين فأول ما يظهر لهما على صورة طائر أبيض قد وضع حول رقبته قلادة من نور وحمل على جناحه كنانة تحوى سهاما تنزف منها الدماء الذكية وبيده قوس ثم ما يلبث أن يخرج من كنانته سهما يشد به القوس ويصوبه نحو العاشقين فينفذ ذلك السهم من قلبيهما ثم يبيت على اتصال بينهما ويتركهما كيوبد وينظر إليهما مبتسما قائلا من منكما يقدر على أن يخالف أمرى ؟ ، ويظل هكذا يراقبهما . فهذا شاب وسيم الطلعة متصف بالشجاعة والكرام وهذه فتاة ممشوقة القد ثم قابلا بعضهما ووقعا فى شراك كيوبد وأتاهما على الصورة الأولى فلا يزال السهم مارقا بين فؤاديهما والجرح يؤلم هذه طورا وذاك آخر ولكنه ألم بلذة فادا وثب غر وأراد أن ينصلهما عن بعضهما فما أعنفه من موقف ! فتصور أنت أيها القارىء الكريم جرحين التأما على سهم ثم جاء شخص يريد أن ينزع السهم منهما فماذا يكون المصير ؟ إنه الهلاك لا محالة ، ومن يأتى ذلك الجبار العاتية الذى يجرؤ على فصل هذين الجرحين ... آه ... انهم الآباء الذين يفصلونهما ويكاسون الجرحين

بعد أن يصوبا سهامهم نحو ذلك الطائر المسكين (كيوبد) فيصيبونه ويظل هذا الطائر يتقلب من جنب إلى جنب إلى أن تذهب العلاقة بين الحبيبين ثم يتوارى ولكن من يأسو الجرحين ؟ تظل حالتهما في تأخر والفتاة ضعيفة الارادة تتقلب على جمر الالظى إلى أن تزف إلى ... لساني يخشى أن يقولها إنها كلمة قوية لا يتحملها أي إنسان بل هي كلمة هي مآب الجميع بعد لعب الحياة ، إنها ياسيدي تزف إلى القبر الذي يختارها زوجة مخلصة إلى الأبد فقد تعمد فتاتنا المسكينة إلى إحدى وسائل الانتحار فتلهب جسدا طاهرا بنار حامية أو تسممه بسم زعاف ولا ذنب لهذه الروح الطاهرة سوى ظلم الآباء وجرائمهم التي يرتكبونها وهم لا يشعرون الذين ظنوا أن سعادة الفتاة متوقفة على زوج ثري ولكن هل من حياة سعيدة بدون حب ؟ أظن الجواب كلا . إذن فما هي البغية التي يريدها الأب لابنته ؟ إنها السعادة وما دامت السعادة متوقفة على الحب لا على المال إذن يجب عليه أن يزفها إلى من هواه قلبها وعمل له تنويما مغنطيسيا على أن لا يرى سواه ولا يسمع سوى أقواله حتى تعيش على أجنحة طير السعادة فيحلق بها في سماء الآمال.

فى هذه اللحظة لما رأى الدائنون حروجة الموقف وسمعوا أقوال الفتاة أجلوا يوم الاستلام وجرجوا وهم يتساءلون فيما بينهم عن هذا السر الذى دعى الفتاة لتقف خطيبة مؤثرة .

عاصمة الديار المصريه

لقد تركنا سعد على أبواب المناداه للذهاب إلى القاهرة وما هى إلا أشهر معدودات حتى نودى للسفر فقام جمع من القرية يودع سعد ورضوان وإذا نظرت إلى المودعين لوجدتهم يبكون بكاء مرا وكأنهم يشيعون جنازة لايحتفلون بتقديم شباب للجندية فما هذه العادة المرذولة وما هذا التأخير الفادح !!. أمعن فى النظر وافتح عينيك يمنة ويسرة تجد أن فتاة تسير الهوينى وكانت أشد المحتفلين لوعة وأحرهم أسى وما كانت هذه الفتاة سوى مريم حبيبة سعد .

وصل الركب المحطة ودخلوا ردهة الانتظار وهم يولولون ويسكبون العبرات وإذا نظرت الى سعد لوجدته واقفا مع مريم يؤكد لها عودته وخطوبتها من والدها الذى فضل عليه خالد ثم أخذ يخبرها بالمستقبل الذى ابتسم فى وجهيهما وأوصته

مريم بأن لاينظر الى فتيات القاهرة اللائى يستهوين الشبان برشاقتهن وخفة أرواحهن وتأنقهن فى الملابس .

صلصل ناقوس المحطة مؤذنا بالاستعداد لابتداء الشوط ثم ركب سعد ورضوان بعد عناق طويل مع أقاربها ولقد بكى قاسم والد سعد وبكى خليل والد رضوان بكاء تتفتت من أجله الأكباد وتذوب حسرة من أجله نياط القلوب . دوى صوت القطار ونظر سعد الى مريم ونظرت اليه فكانت نظرات ذات معنى فلقد أسلمت العيون للقلوب التى كانت أوهى من خيط العنكبوت لاتحمل شيئا سوى ذكرى الغرام . تحركت عجلات القطار فخفق من أولئك قلبان أحدهما يتحرك ولا يشعر بالحركة والثانى ساكن ولا يشعر بالسكون خفرت مريم مغشيا عليها ولما رآها سعد هم بأن يقفز من الشباك ولكن أخبروه بأنها بخالة جيدة ولم يكن هذا سوى طارىء من شدة التأثر ونظرت مريم رغم هذا التأثير إلى القطار ونظر سعد اليها وأخذ يطوح بيده فى الفضاء يحيى الجميع عامة ومريم خاصة وأخذت مريم ترفع يدها أيضا له بالتحية الى أن اختفى القطار عن الأنظار وابتلعه الطريق وأخفته الأشجار ورجع المودعون

إلى قريتهم .

وصل سعد ورضوان الى القاهرة فى الساعة الثامنة مساء وأدخلوا حجرة المستجدين وباتا بها حتى الصباح وعلم كل منهما مهمته وكانا يذهبان لتعلم نظام الجندية فكان سعد كبهلوان يلفت الأنظار . مضت مدة طويلة وانتهت عملية التمرين ولما كان سعد محبوبا من الجند والرؤساء أخذه أحمد بك بهجت مراسلا له فى منزلة فجد سعد فى بيت القائمقام حتى سر منه كثيرا ورقاه الى درجة جاويش وكان سعد فى هذه الأيام يراسل أهل بلده .

كانت ابنة القائمقام « زوزو هانم » فتاه جميلة من الطبقة الديمقراطية تخرج مع سعد لزيارة بعض حدائق القاهرة العمومية ترويحا للنفس ولما رأت زوزو هانم من شبابه الناضج وعذوبة الفاظه الآخذة بمجامع القلوب مالت إليه وفى ذات مساء خرجا يصطحبان الكلب « فيدو » وذهبا الى حديقة قصر النيل وقد كانت الجنينة على قرب من غلق أبوابها فدخلها الاثنان وثالثهم كلبهم إلى أن وصلا إلى مقعد تحت شجرة ضخمة وجلسا فنظر سعد الى الشجرة وتذكر أيامه السالفة لأنه اضطجع الى المسند

ونظر الى القمر الذى شق السماء وطل من بين أغصان الشجرة فراح فى بحر من الاحلام ماؤه الافكار وسفنه الأيام وأشراعه الآمال وبينما هو على هذه الحال إذ به يشعر بشىء ناعم طرى قدمس جبهته فهب من أحلامه فوجد ان زوزو هانم قد الصقت جسمها بجسمه ووضعت رأسها فوق كتفه ومشت بيدها فوق رأسه فى حين أن الكلب جلس ينظر الى الأرض لاينكر الا فى سكون الليل فقال سعد ماهذا ياسيدتى ؟ فضغطت زوزو هانم عليه وقالت أحبك ياسعد ثم همت بتقبيله فقال عفوا يامولاتى ثم بكى لأنه تذكر ساعة أن قال لمريم عفوا يامولاتى فأخرجت الفتاة من حقيبتها منديلا حريرا جميلا وأخذت تجفف له الدموع ظنا منها أنه من أجل حبها بكى لشدة الفرح ثم قام وقال هيا ياسيدتى الى الدار لأننا ابطأنا خصوصا وأن الناقوس يصلصل لخروج المتنزهون وغلق الابواب هيا يافيدو ثم غمز الكلب بقدمه فقام على الاربع فتأبطت الفتاة ذراع سعد على غير العادة ثم أخذت تقرب يده من نهديها فصاح سعد وهم بجذب يده منها ولكنها الحت فى بقائها وقالت أنت معبودى ياسعد أنت لى ثم فغرت فاها وقالت

قبلنى حتى أحس أن حبي قد تغلغل فى فؤادك فنفرمنها وقال ابتعدى ياسيدتى خوفا من أن يرانا أحد فيخبر والدك بذلك فيحدث مالا تحمد عقباه ولكن كل هذا بلا فائدة فقد اهتاجت أعصاب الفتاة وبينماهما سائرين فى شارع الحديقة الغربى وهو شارع ساكن خصوصا فى الليل جذبت زوزو هانم سعد نحوها وضمته الى صدرها فجذب نفسه بتهور وابتعد عنها فبكت الفتاة واقتربت منه قائلة أنت لاتهوانى ياسعد فقال كلا ياسيدتى لاتقولى ذلك فأنت ... ثم أمسك عن الكلام فقالت له أتم حديثك ؟ فقال أنت سيدتى وأناخادمك فقالت عفوا ياملاكى بل أنت سيدى وأنا عبدتك ثم قالت لم لاتقبل على حبى وأنا اهواك وهواك فى قلبى لهو كشعلة من نارلاتخمد السنتها الا اذا نظرت الى وجهك الجميل ياسعد .... آه ياالهى ثم نظرت الى سعد وقالت متى ترحمنى وتخبرنى بحبك وفى هذه اللحظه كاناقد اقتربا من قنطرة الخديو اسماعيل فمشى كل منهما بنفسه الى أن تواريا فى شوارع جاردن سيتى حيث كان هناك منزل أحمد بك بهجت فدخلاه وصعدت الفتاة الى والدتها فائقة هانم وأخبرتها بأن النزهة كانت شيقة جدا وتود أن تذهب

كل مساء لتروح عن نفسها خصوصا وأن الدكتور قد أمرها بالترويح عن النفس فلم تبد الأم أى ممانعة وقالت لك يابنيتى ماتشائين .

المقابلة

مضت مدة على سعد وهو لم يرأهله فحداه الشوق وهزه الانين الى وطنه فأرسل خطابا يخبر أهله بأنه قادم لزيارتهم وأخذتصريحا بذلك وفى ليلة السفر خرج مع زوزو هانم الى الحدائق فراحا الى مكان المرّات السابقة وبثته زوزو لواعج الشوق ولكن لم يكن قلبه يميل اليها فقال لها وهى تضمه الى صدرها القلب واحد أم أثنان فقالت القلب واحد ياحبيبى فقال وهل لواحد أن يحمل أثنين أو هل لمخلوق أن يحيي حياتين ؟ ففهمت زوزو مقدمة كلامه وقالت كلا لايمكن ولكن هل أنت تحب غيرى ياسعد فخجل ثم قال ، نعم فأخبرته بأن يترك حبيبته الاولى فرفض فرمته بالغباوة ولكنها قبل عودتهما الى الدار قالت له أعف عنى وأغفرلى لأنى أخطأت فلم يجبها ثم عاد الى المنزل.

وفى الصباح ركب سعد أول قطار يبرح محطة العاصمة وهو

بلباس الجندية ووصل الى المنصورة فوجد أن أبنية سندوب قدتحولت الى آدميين وجاءت لاستقباله ولما وقف القطار وخرج من المحطة وسط هذه الجموع المحتشدة كأنه زعيم من الزعماء أو بطل من الابطال وبعد أن قابل والديه وقبله أبوه ثم أمه كان كالمعتوه ينظر هنا وهناك ثم بعد لحظة وجد مريم راكعة تحت قدميه فلم يتمالك شعوره وهوى عليها يريد تقبيلها ولكنه تذكر موقفه ثم أحضروا له حمارا فركب وعاد الى القرية وقد زينت بالأعلام باب داره . مكث بالقرية ليلة وفى الصباح ذهب ليخطب مريم من أبيها فأخبره والدها بأنها مخطوبة لابن العمدة فرجع خائر العزم وقد ذهب قلبه شعاعا . وفى المساء قابل سعد مريم تحت الصفصافة وقاما بتدبير مؤامرة على أن يسرق سعد مريم ويذهب الى القاهرة ولكنهما وجدا أن هذه الفكرة تكون واضحة فأخرج سعد من جيبه جنيها مصريا وأعطاه لمريم وأخبرها بأن تركب القطار الذى يلى قطاره فى الغد وتعانقا طويلا ثم ذهب كل منهما الى داره

وفى الصباح قام سكان القرية يودعون سعد ويقرئون سلامهم

الى رضوان وسلم عليهم وبكى حيث بكوا وركب القطار وأخذ ينهب به الأرض نهبا .

كان القرويون يودعون سعد فى حين أن مريم كانت تقطع أجازة السفر من شباك التذاكر ثم انزوت فى أحد أركان المحطة حتى رجع أهلها وما هى إلا خطرة ثم رحل القطار يحمل مريم وكان بينه وبين الأول مسافة ميلين .

المسافة قريبه وللقلوب أيضا تتعانق وللشفاة أن ترتشف كؤوس الحب على متن الأسفار . وصل سعد الى القاهرة ثم انتظر حبيبته ولما نزلت من القطار أخذها بين أحضانه وذهب إلى دار سيده وأخبرهم بأنها أخته أتت لتخدم فى المنزل سرّ أحمد بك بهجت من إخلاص سعد ، وفى ذات مساء خرج سعد ومريم ليروضا الكلب فى حديقة المنزل .

استحسن سعد جذع شجرة معوج وجلس عليها وأما مريم فظلت واقفة وكأن الأقدار تريد ذلك لشىء فى نفسها ثم قام سعد وأخذ يرتب بعض الأزهار فى حين أن مريم أخذت تداعب الكلب كثيرا حتى مل الكلب المزاح واستسخفه فمال على يدها

وقضمها قضمة مبرحة فأخذت تصيح وتنزل اللعنات على الكلب فأتى سعد مسرعا وقال ماذا جرى ونظر الى الكلب فوجده ينظر اليهما بتوسل كأنه شاعر بجرمه الذى ارتكبه ، يالها من مأساه قوية ، نظر سعد فوجد حبيبته تتأوه ونظر إلى الحيوان الاعجم فوجده قد فغر فاه ووقف على مؤخر قدميه رافعا الأوليين يطلب الصفح فنظر الى السماء وقال الرحمة يارب وأخذ يتمتم ببعض كلمات ثم جلس بجوار مريم ليرى جرحها فوجد أن الكلب قد شق راحة يدها فطلب رجال الاسعاف وضمدوا لها جرحها وبعد عدة أيام كانت قد شفيت تماما .

الحالة فى سنـــدوب

لما عاد القوم إلى ديارهم وزحفت جيوش الليل الجرارة وهزمت جيوش النهار حينما أستل الليل سيفه القاتم وضرب الشمس ضربة ذهبت بها من على وجه الأرض وكأن سيفه قد لوث بدماء الشمس فتعلقت نقطة من دمائها بالسماء وأبت إلا أن تعيد ذكرى الماضى فأنارت السماء وكان نورها ضئيلا فكانت هى القمر . لم تعد مريم بعد إلى البيت فباتت العائلة تنتحب وقال أبوها لابد أنها ذهبت

مع ذلك اللعين سعد ولكن لما جاء الصباح واجتمع الذين كانوا يودعون سعد فى دار العمدة حسب أمره ثم أخبروا العم سرحان أن سعد ركب القطار وحده وأنهم لم يروا مريم ذلك اليوم فانتشر الناس فى الحقول وبجوار الترع يبحثون عنها ولكن مرت الأيام سراعا ولم يظهر لها خبر وأتى يوم دفع الدين .

لما علم خالد بهذه النكبة التى حلت به فطن بما حل بخطيبته فأرسل إلى سعد خطابا هذا مغزاه .

السلام عليكم يا سعد ، أسرع باعادة مريم وإلا أخبرت البوليس بالحقيقة فتلقى حتفك » .

خالد

وصل الخطاب إلى سعد فتخوف ولكنه رد عليه بما يأتى :

« أخى خالد افندى .

« ثق بأنها ليست لك وأنها لا تحبك ولا تهواك فلقد تزوجتها وانتهى الامر » .

سعد

ويلاحظ أن الذى كان يكتب لسعد خطاباته هو البدال الذى

تعود سعد أن يشترى منه اللوازم .

ولما وصل الخطاب إلى خالد أخذ منه الأسى كل مأخذ وأخبر أهل بلدته بالحقيقة المرة .

إماطة اللثام

لم يهدأ لخالد حال فقام لساعته وجاء الى مصر ودخل منزل أحمد بك بهجت بقوة من رجال البوليس وبعد أن احتكموا الدى القضاء أخذ خالد مريم وعاد الى سندوب .جاء الدائنون وأخذوا يلحون فى طلب الديون ولما لم يجدوا فائدة استلموا المنزل والبقره وطردوا العم سرحان وزوجته وابنه فالتحفوا بالسماء وافترشوا الثرى ولشدة وقع المصاب هلع قلب الرجل فمات وحزنت الأم لفقد زوجها وابنتها فلحقت بالمسكين الذى جنى على نفسه وتركا بائسا يترنح من الايام التى اثقلت كاهله ومن الاقدار التى جمعت عائلته فى حقيبة سوداء وظلت تطوح بها فى الظلمات فسقطت مريم ولحق بها الاب ثم تدلت الام منها رغم انفها وكأن جاذبية الارض تجذبها وهى تقاومها بالقبض على الحقيبة الى أن هزمها الاقدار فسقطت الأم وأنت ياشعبان استظل هكذا تلعب بالأيام أم هى

التى تلعب بك ؟ يجرى البأس ويمرح مع الاطفال وياويح قلبي انه ما درى أن الأيام والمقادير تسن سيوفها لتنتقم ... تنتقم .. تنتقم ممن ؟ من شعلان !! انها أعجوبة حقا أتنتقم الأقدار حقا من هذا المسكين ؟ لست بمتأكد أو بالحرى لست بواع أن الأقدار تنتقم من غلام فقد حنان الأبوين وعطف الشقيقة ، ابتسم للشدائد ياشعلان وكن غلاما نشطا لاتركن إلى الكسل أجبنى بنى شعلان ... قهقه الولد وهو يتطى ظهر عصا ويجرى بها فى الحقول ... قف أى شعلان ثم تحدث معى قليلا حتى أعلمك ما للأقدار من معدات ومالها من جيوش وماها من سهام وماها من مصائب وماها من سخافات ومالها من قوة وجبروت وماها من عنف فى معاملة البائسين وما لها من تعذيب قد عزمت على أن تنزله بك .....

ضحك الغلام وتراجع بجسمه الى الوراء وهو يتأرجح فى ارجوحة انزل ياغلام وقف بجوارى أواطرق باب دارى فساقص عليك أنباء علها ترحم فؤادك المضنى أوتؤاسى جرحك المكلوم ...

نظر الى وهو يحفر فى الطين ليخرج ديدانا يعلقها فى شصه كى يصيد سمكا ... أذاهب أنت ياشعلان لتصيد السمك ؟ بربك

قف ولاتعجل . لاتذهب ياغلام لأنك لوعلمت أن هنالك ستقع الموقعه الحاسمة بينك وبين جيوش الأيام . . أنها اقوى منك وجيوشها لا تقهر وقوادها محنكون ونيرانها محرقه وسهامها خارقة وجنودها لعبت طورا فى الحياة أعنى أنها مدربة ولا يمكنك مقاومتها ... ضحك منى ثم أدلى الشص فى النهر ... صاح ضاحكا ... ها . ها . ها ثم جذب الشص فاذا بسمكة سوداء لم أر مثلها قط ففرح بها الغلام ووضعها فى جيبه ، كفى هذا ثم قم الى دارك ... دارك ... آه لقد نسيت . قم الى ... الى ... الى محاربة البؤس ... سخر منى ثم قال إننى أحارب البؤس الآن وعند ذلك نظرت لأرى شعلان فلم أجده . شعلان ... شعلان أيناك يابنى ، نظرت فى عرض النهر فزمجر ثم قذفنى بشصة قائلا خذ هذه فهى التى بقيت من جيوش شعلان . يانهر ليس لشعلان جيوش فلم يرد على . وابتلعه اليم ومحى اسمه من عالم الوجود .

عادت مريم فلم تجد أباها ولا امها ولا أخاها فهالها الحادث ولكن العمدة وبعض أعيان البلدة خففوا من آلامها وأخبروها بأن خير وسيلة أن تتزوج من خالد وأن تترك ذلك الجندى الحقير

فباتت ليلتها ساهدة ولما جاء يوم الزفاف زفت إلى خالد وفى أثناء الاحتفال نظرت الى يدها فرأت آثار قضمة الكلب وتذكرت حبيبها سعد فأقسمت وعولت على الانتحار . لم تطل الأيام وأخذت مريم تذهب الى المقابر وتناجى أبويها حتى جنت وفى يوم تعكرت سماؤه ذهبت إلى الساقية لتعيد ذكرى الماضى ووقفت أمام الغدير وتذكرت أيامها فمرت الحوادث أمامها مرور الرياح على الأديم ورأت أخاها عندما أنقذه سعد وعلمت أن ذلك الغدير هو الذى أراده ثم أخذه ثم حزنت لحزن سعد واستعدت لأن تقذف جسدها فى الماء فنظرت تجاه المقابر أولا ثم تجاه الصفصافة ثانياً ورأت على الشجرة طائرا فقالت له أنظر الى ثم أذهب الىّ حبيبى سعد هناك ... هناك بعيدا فى مصر وأخبره بحالى وقل له إنّ مريم تنتظرك فى الجنة فلا تعبأ بالأيام ولا تقدر لها وزنا هيا اذهب أيها الطائر ... فحلق فى السماء فوق الغدير وعندذلك ألقت بجسدها فى عرض النهر حيث كانت غذاء للأسماك وحيث اختارها قاعه خليلة وفية له إلى النهاية .

لما ذهب خالد الى الدار ولم يجدها أسرع يبحث عنها فرآها

من بعد وهى واقفة عند الغدير فأسرع إليها ولكنه لما اقترب منها قذفت بجسدها فى النهر بعد أن نظرت اليه نظرة قسوة ولما وصل الغدير فوجدها قدرسبت فحزن عليها ونزل لينقذها فغاصت قدميه فى الطمى وتعالت عليه الأمواج فلحق بها .

عد معى إلى سعد الذى عاد إلى سندوب ليرى من أمر حبيبته فوجدها قد انطوت صحيفتها فقام وذهب إلى مكان حبيته فى الغدير وقال : لا خير فى من حب ولا أخلص وأنا كنت أحبك يامريم وأنت كنت تبادلينى الغرام فاما الحياة الأبدية وأما الموت الذى لا بعده رجعه ولقدمت أى حبيبتى ومن لى فى هذه الحياة بعدك . ؟ .. أظن أن الحياة مرة ولا يمكننى أن أتحمل عبئها الثقيل أو أتجرع كأسها المرير بعدك ياحبيبتى فقابلينى هناك على سرر الجنة الخضراء ثم افتحى الى ذراعيك الجميلتين حتى أرتمى بينهما وأرتشف عبرات فيك الجميل .. أقبلك ذلك الوغد خالد ؟ كم أننى بائس ولم يكتف بالدنيا فذهب وراءك فى الآخرة ؟ .. آه أنها مصيبة قوية لقد تمزق فؤادى وحزت أحشائى ، ثم بكى ونظر إلى السماء والماء وودع القرية بتأوهات ثم الوداع .. الوداع

يادار الشقاء سوف أتركك بعد هنيهة وأتقابل مع حبيبتي واقتل خالد.
آه يارب لقد طا الأنين بلا فائدة فهيا عجل ياطيف المنية ثم نظر إلى السماء فرأى طائرا أسود امر من على الغدير فخيل اليه أنه طائر الفناء ثم رأى وراءه طائرا أبيضا فخيل اليه أنه مريم وهذا الطائر يقودها إلى دار الآخرة فقال عجل .. عجل وقدفى اليها ثم خر على الأرض حيث قذف بجسده الى النهر ولبت روحه نداء خالقها وذهبت تشكوا الى الله بثها وبلواها من ظلم الظالمين .

وليعلم سيدى القارىء أن الحب ما هو إلا ميل غريزى بين شخصين قد تآلف قلباهما وتناسبت أذواقهما ، ما هو إلا حركة النفس الفارغة بلا تفكير ولا روية وأرجع فأقول ما هو إلا بلسم شاف لهؤلاء الذين تصدعت أفئدتهم ، ماهو إلا التعذيب وشرب كأس الهوان ، ما هو إلا لفظ جدير بالاعجاب لغموضه وعدم تمكن أحد من أماطة اللثام عنه ، ما هو الا قهوة كهربائية تسير فى الجسم أسلاكها الشرايين ومركزها القلب ويسرى مفعولها لا بتحريك الزر (الكبس) ولكن بتحريك العين التى ترى عينا أخرى فاذا ماراقتها وصلت التموجات الكهربائية الى القلب فيغرم

فرحماك يا مريم وأسكنك الله واسع الجنان ياسعد ولله الأمر من قبل ومن بعد ؟

٤ يونيه سنة ١٩٣٥ م

تمت

obeikandl.com

وللمؤلف تحت الطبع

رواية

على مسرح الحياة

رواية أدبية أخلاقية يتمثل فيها البؤس والشقاء يحلقان على أسرة فقيرة ثم الأجرام الذى يرتكبه شاب من اعلا الطبقات وهى على العموم مليئة بالنوع المحزن .

وكتاب

خطراتى بقلمى

تحفة أدبية منقطعة النظير

obeikandl.com